

الدهرية: العمى عن الجمال المقدس

الأب ستيفن فريم

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

وصف الأب ألكسندر شميمان "الدهرية" بأنها أعظم بدعة في عصرنا. لم يصفها بأنها حركة سياسية ولا تهديد من العالم خارج المسيحية، بل وصفها بأنها "هرطقة"، أي تعليم كاذب، من داخل الإيمان المسيحي. ما هي الدهرية؟ إنها الإيمان بأن العالم موجود مستقلاً عن الله، وأن معناه وغرضه يحددهما البشر. الأشياء هي مجرد أشياء. العالم ليس أعجب من سطحه. هذا تناقضه الأرثوذكسية حيث الكل "يحيا ويتحرك ويوجد" في الله. الله يصون العالم ويوجهه نحو غايته: الاتحاد به. إلى هذا، الكل موجود بأعماق وطبقات، فللكون بنية أسرارية أو أيقونية، بحيث أن كل شيء هو نقطة شركة مع الله.

في عصرنا، احتلت مفاهيم العلمانية الصدارة لأكثر من مئتي عام. لقد وجدت طريقها إلى عمق فهم معظم المسيحيين، وقوّضت إيمان الأرثوذكس والكاثوليك. إنها بدعة غير معترف بها إلى حد كبير من حيث أنها تبدو وجهة نظر "غير دينية"، كونها خارج نطاق اللاهوت. ببساطة يعتقد المعاصرون أنها "الأمور كما هي" على مدار سني الكتابة، كان أحد موضوعاتي المستمرة توجيه القراء نحو ما ليس مرئياً. هذا اللامرئي هو في صميم استخدامي لصورة "الكون من طابق واحد"، كما في سعبي لتقديم الكتاب المقدس. إنه جزء من مشكلة الخزي، على الرغم من أنني لم أوضح بعد هذا الجانب من المشكلة بشكل كامل. ومع ذلك، فإن الرد على الدهرية لا يكمن في مهاجمتها. بدلاً من ذلك، فإنه يظهر بشكل أفضل من خلال تقديم ما هو صحيح وحقيقي، أي شكل العالم الذي تنكره العقيدة الدهرية. في هذا، يقدم القديس بولس إعلاناً مفيداً للغاية: "بَلْ وَإِنْ كَانَ إِنْسَانًا الْخَارِجُ يَفْنَى، فَالِدَّاخِلُ يَجْدُدُ يَوْمًا فَيَوْمًا. لِأَنَّ حِفَّةَ ضَيْقِنَا الْوَقْتِيَّةِ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثَقَلٌ مَجْدٍ أَبَدِيًّا. وَنَحْنُ غَيْرُ نَاطِرِينَ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُرَى، بَلْ إِلَى الَّتِي لَا تُرَى. لِأَنَّ الَّتِي تُرَى وَقْتِيَّةٌ، وَأَمَّا الَّتِي لَا تُرَى فَأَبَدِيَّةٌ." (كورنثوس الثانية ٤: ١٦-١٨).

لقد بدا لي أن عادات حياتنا الحديثة تتعارض مع هذا الموضوع. وفي افتتاحنا بـ "ظاهر" الأشياء، نفشل في رؤية ما يكمن تحتها. هذا ما يجعلنا قلقين ومدفوعين بأشياء تافهة. نحن نتعرض لتجربة مستمرة في زماننا الحاضر وهي أن نفقد الثقة بأن هناك أي شيء غير مرئي أو أبدياً، أقله بالمعنى الذي تمس به هذه الأشياء وجودنا اليومي. إن عالمنا الدهري الخائب هو أغنية جنية بحر تعد بقوة السيطرة بينما تجردنا من واقع الشركة. نحن "ندير" العالم في وقت ينبغي أن نكون في غرام معه.

إن المثال الأسمى للحقيقة الأبدية غير المرئية موجود بيننا في الإفخارستيا، حيث نعلن أن "هذا هو جسد ربنا يسوع المسيح الكريم نفسه... ودم ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم نفسه". ليس هذا المثال استثناءً، حدثاً غريباً يُقال فيه هذا الكلام لمرة واحدة فقط فيما هو محاط بسطحية و فراغ المنظر الدهري. هذه النقطة هي في قلب ما كتبه الأب ألكسندر شميمان: "فهم ليتورجيا الإفخارستيا بأفضل وجه كرحلة أو

مسيرة. إنها رحلة الكنيسة في بُعد الملكوت. نستعمل عبارة 'بُعد' لأنها تبدو السبيل الأفضل للإشارة إلى طريقة دخولنا الأسراري إلى حياة قيامة المسيح. الألوان الشفافة "تنبض بالحياة" عند عرضها بثلاثة أبعاد بدلاً من بعدين. يسمح لنا وجود البعد الإضافي برؤية الواقع الفعلي لما تم تصويره بشكل أفضل. وبنفس الطريقة، على الرغم من أن أي تشبيه محكوم بالفشل بالطبع، فإن دخولنا إلى حضرة المسيح هو مدخل إلى البعد الرابع الذي يسمح لنا برؤية حقيقة الحياة المطلقة. هذا ليس هروباً من العالم، بل هو الوصول إلى وجهة نظر يمكننا من خلالها أن نرى بشكل أعمق في واقع العالم" (من أجل حياة العالم).

إحدى الطرق لمباشرة رحلة الخروج من الدهرية هي اتباع طريق الجمال. لقد حوصرننا في القياس المنطقي الذي يقول، "الجمال هو في عين الناظر"، ما هو غير صحيح بشكل واضح كما أنه يتعارض مع الجمال نفسه. عندما يُختزل الجمال إلى الذاتية يفقد معناه كما قدرته على خلاصنا. لدوستويفسكي مقولته الشهيرة: "إن الجمال سينقذ العالم". إن سرّ هذا الفكر يُهدر في العقل الدهري.

إن إدراك الجمال ضروري للنفس مثل إدراك الحرارة والبرودة، الصعود والهبوط، الصواب والخطأ. إن إضفاء الذاتية (subjectivization) على الجمال هو حرب الدهري ضد خصمه الوحيد المحتمل، ما يضع نفس البشر على المحك. في النهاية تنكر الدهرية وجود الروح، ما لم يكن هناك شكل من أشكال "البقاء" بعد الموت. إن وجود بُعد غير مرئي لكل حياة بشرية يتجاوز المشاعر والفكر، هو أمر غير معترف به في عالم تتزايد فيه المادية. الروح، كواقع موجود حقاً، يسهل إنكارها كما يسهل إنكار جسد المسيح ودمه. تشير استطلاعات الرأي المعاصرة إلى أن ما يصل إلى ٦٠-٧٠ بالمائة من الكاثوليك الأمريكيين لم يعودوا يؤمنون بعقيدة الحضور الحقيقي. هذا يجعل احتمال أن ينكروا أرواحهم أيضاً كبيراً.

إن هذا أكثر بكثير من مجرد إشارة إلى خيانة التعاليم التقليدية. إنه يشير إلى تحول في النظرة للعالم التي فيها إنكار لإمكانية وجود حقيقة داخلية. كل ما تبقى من الحياة الداخلية هو تلك المنطقة التي تصفها الآن بأنها "نفسية" (والتي أصبحت الآن تسمية خاطئة بمعنى أن اسمها يعني "دراسة النفس").

الدهرية المبكرة تتحدث في شخصية أبنزر سكروج (Ebenezer Scrooge) التي أبداعها ديكنز لعيد الميلاد في القرن التاسع عشر. عندما واجه سكروج شبح شريكه القديم، جاكوب مارلي (Jacob Marley)، قال: "قد تكون قطعة لحم غير مهضومة، بقعة خردل، كسرة من الجبن، قطعة بطاطس نيئة. عليك مرق أكثر مما عليك من آثار القبر، بغض النظر عما أنت!"

إننا نجلب نفس الهراء المتشكك إلى تصورنا للجمال. من المرجح أن ثقتنا بتجربتنا الثقافية هي أكبر من ثقتنا بالمرق السيئ، لكننا على يقين أن الجمال الذي ندرکه لا يؤثر علينا أكثر من تفضيلنا للكوكاكولا على البيبسي. "لا أعرف، أعتقد فقط أنها جميلة!" إن تيقن آباء الكنيسة للجمال كان عميقاً إلى درجة أنهم جمعوه مع الحقيقة والصالح والوجود كمظهر أساسي وجوهري للحقيقة نفسها. بالنسبة للمسيحيين، تتأصل حقيقة الجمال الفائقة في المسيح اللوغوس الذي به كان كل شيء، وبه توجد كل الأشياء. إن إنكار الجمال باعتباره متعالياً هو إنكار لصالح الخلق أيضاً.

"الإدراك النوسي" عبارة تصف قابلية قلب الإنسان على إدراك ما هو إلهي. على هذا النحو، هي قدرتنا على الشركة مع الله وكل الخليقة. في المقام الأول، ما ندرکه بشكل نوعي عن الخلق هو "منطقيته (logicity)"، أي عكسه للوغوس. بدون هذا الإدراك لا نرى حقيقة الأشياء. على نفس المنوال، بدون هذا الإدراك لا يمكننا معرفة حقيقة أنفسنا. بالطبع، الخير والحقيقة معرّضان للخطر في العالم الدهري مثل الجمال. العالم الذي لا يرى الخير والحقيقة هو عالم تُرْفَع فيه التشويّهات وحتى الأكاذيب إلى مكانة بارزة. في عالم دهري، يصير المال والعنف طاقتي الحكم والتغيير الأساسيتين.

البشر مخلوقون في الجمال ونحن نتوق إلى الشركة. ينطبق الشيء نفسه على الخير والحقيقة. يحدث بتزّ بداخلنا عندما نخبرنا لغتنا الثقافية أن أعمق غرائز وجودنا هي مجرد انطباعات ذاتية. إنها فكرة مخزية تسعى إلى الحطّ من حقيقة من نحن. إنها تخلق الشعور بالوحدة والاعتراب الذي يبحث عن إجابات في عالم قيل لنا أنه صامت. بعض الحجج العقلانية هي تمارين في العبثية. على سبيل المثال، الدخول في جدال حول ما إذا كنت موجوداً هو سخافة. الحجة التي تقول أن كل تجربة ذاتية بحثة (كلها في رأسك - أنت مجرد عقل) هي سخافة أخرى. إلى حد مماثل، فإن المناقشات التي تسعى إلى إنكار وجود جدير للحقيقة والجمال والخير تحملنا إلى اللامعقول. إن كلاماً مثل هذا غالباً ما يثير الآخرين للجدل حول الحقيقة والجمال والصلاح (قول بيلاطس البنطي "ما هو الحق؟" هو شهادة على هذا).

في اعتقادي، تتخيّل مثل هذه الحجج أنك تسعى لفرض الحقيقة والجمال والخير. هذه واحدة من المشاكل الأساسية للدهرية. نظراً لأن الحقيقة والجمال والخير ليس فيهم أي وجود خفي أبدي، فإن ما يتبقى هو صيغ الحقيقة والجمال والخير الزائفين التي يتم إنشاؤها بالعنف والمال. إنها تختزل الحياة إلى السياسة، أي الصراع على السلطة. أولئك الذين يعلنون، في موسم الانتخابات، أن "روح الأمة معرّضة للخطر" (وكافة الأطراف تقول ذلك بطريقة أو بأخرى)، لا يقصدون سوى أن فريقهم قد يخسر في لعبة السلطة. إن معركة القوة وإيماننا بالدهرية هي التي تعرض الروح للخطر. إذا كانت الحقيقة والجمال والخير حقائق أبدية، فإنها تتحدى التشريع. يجب تمييزها وإدراكها حتى ندخل في شركة معها، ونصبح ذاك النوع من الناس الذين يظهرونها في حياتهم. كما قال القديس بولس " ضِدَّ أَمْثَالِ هَذِهِ لَيْسَ نَأْمُوشٌ (غلاطية ٥: ٢٣).

ما لا يُرى هو الأشياء الأكثر أهمية. قبل خمسة عشر ألف عام، في الجزء الخلفي من كهفٍ في مكان ما في إسبانيا، رَسَمَ إنسان، بعيد عنا تماماً من حيث الخبرة واللغة والثقافة، صوراً لثور البايسون على الجدران. ليس لدينا فكرة عن نيته أو غرضه. ومع ذلك، يمكننا القول، دون تردد، أن رسوماته كانت، وهي كذلك، جميلة. بدون كلمات، وما وراء الكلمات، قال لنا هذا الشيء. كانت رسوماته صحيحة وجيدة أيضاً. إنها تخبرنا أنه أدرك الأشياء الأبدية وترك لنا هذه الشهادة. فليسأمحنا الله إذا رفضنا الاستماع.

* الأب ستيفن فريمان هو كاهن في الكنيسة الأرثوذكسية في أمريكا (OCA)، وهو راعي كنيسة القديسة حنة الأرثوذكسية في أوك ريدج بولاية تينيسي. وهو أيضاً مؤلف كتاب "حاضر في كل مكان والمجد لله".

Source: Father Stephen Freeman. Secularism: Blind To Holy Beauty. The Postil Magazine. Posted on November 1, /2020. <https://www.thepostil.com/secularism-blind-to-holy-beauty>